الأركان العامة

الشيخ/ محمد الغزالي(*)

سمعت متحدثًا كأنه يعتذر عن مناسك الحج، يقول: إن الله يختبرنا بما نعقل حكمته، وبما لا نعقل حكمته، لتظهر طاعتنا في هذا وذاك!

قلت: تعني أن المناسك التي كلفنا بها في الركن الخامس غير معقولة؟ فسكت تهيبًا، ثم قال: ذاك ما أريد، وأنا أطيع الله -جل وعز- في كل ما يكلفني به.

قلت: إن هناك أمورًا كثيرة لا صلة لها بقضايا العقل، لا سلبًا ولا إيجابًا، ووصْفها بأنها «لا معقولة» غير صحيح. فنحن نكتب لغتنا العربية من اليمين إلى اليسار، وأسرة الدول الغربية تكتب لغاتها من اليسار إلى اليمين، هذه أوضاع لا توصف بأنها مع العقل أو ضده، هذه شئون تواضع الناس عليها، ومن حقهم ذلك دون ملام على ما ساروا فيه، واختاروه لأنفسهم.

عند استعراض الجيوش يكلف الجند بأداء التحية على نحو معين، فيرفعون السلاح بحركة خاطفة، ثم يصوبونه إلى إحدى الجهات، ثم يردونه إلى أخرى، ثم يستقر على مناكبهم، ثم يتجهون صوب منصة القائد برءوسهم... إلخ، ما هذا؟ أمور تواضع الناس عليها، يمكن أن نرفض منها ما ينبو عن الذوق اللطيف، ويمكن أن نستملح ما يوائم طباعنا، ولا صلة لهذا كله بقضايا المنطق العقلي.

إن الإسلام يرفض ما يخالف العقل والفطرة، ولكنه لا يعترض المسالك البعيدة عن هذا المجال؛ إلا إذا خدمت باطلًا. قال: تقصد أن أفعال الحج من هذا القبيل السائغ؟ قلت: نعم. قال: لماذا يكون الطواف سبعة أشواط مثلًا؟ قلت: السؤال الدوري يسقط تلقائيًّا، لأنه لو كان أقل أو أكثر لتكرر السؤال. لماذا كان اسمك فلانًا، ولم يكن فلانًا؟

إنه سؤال دائر لا نلتزم له بإجابة، ومع ذلك فإن أفعال الحج في جملتها معقولة،

(*) من كبار علماء الأزهر الشريف.

ولها حِكَم بينة. من حق الإنسانية أن تعتز بذكرياتها القديمة، وأن تحيط هذه الذكريات بأسوار من المهابة والتقديس إذا كانت تتصل بعقائدها وقيمها.

ومناسك الحج جزء من تاريخ جليل، ومفاتح لخزائن من الروحانية الدافقة والعاطفة الجياشة، ومن ثم كان الارتباط بها ركنًا في الدين:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾

(الحج: ٣٢)

ويحتاج هذا الكلام إلى شرح معقول! لماذا تنطلق قوافل البر والبحر والجو صوب البيت العتيق، مُقبلة من القارات الخمس، وفي الأفئدة شوق وفي العيون بريق؟ الحق أن البيت المقصود جدير بهذا الإعزاز كله، فقد بناه أبو الأنبياء إبراهيم؛ ليكون حصنًا للتوحيد ومُلتقى للركع السجود بعدما اشتبك -عليه السلام- مع الوثنية الأولى في صراع حياة أو موت، وقد انتصر إبراهيم في معركة الوحدانية، ورفع هو وابنه إسماعيل قواعد هذا البيت توكيدًا للنصر، ومراغمة للكفر:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

(آل عمران: ٩٦، ٩٧)

إن المسجد الأول في العالم جدير بأن تُشد إليه الرحال، وأن تجيء إليه الوفود بين الحين والحين لتؤدى له التحية.

وكل مسجد يُبنى في المشارق والمغارب بعده ينبغي أن يرتبط به وأن يتجه إليه، ولذلك كان هذا المسجد المحترم قبلة للمؤمنين كافة:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾

(البقرة: ١٥٠)

وشيء آخر في تاريخ الإنسانية يشدنا نحن المسلمين خاصة إلى هذه الكعبة المشرفة، أن أمتنا الكبيرة كانت أملًا عندما بدأ هذا البناء، وأن رسالتنا الخاتمة كانت دعوة حارة عندما برزت هذه القواعد.

كان إبراهيم وإسماعيل يقولان:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(البقرة: ١٢٨، ١٢٩)

إننا نحن الذرية المسلمة المعنية في هذا الدعاء، وإن رسولنا الخاتم محمدًا ﷺ هو صاحب أطهر أنفاس حنت على العالم، وألهمته رشده. أفلا نرتبط بعدئذ بهذا البيت، ونزوره ما وجدنا إلى ذلك سبيلًا؟!

ما أعظم الذكريات التي تحف به! وما أوفى الوفود التي طوت الأبعاد لرؤيته،

والتزود من خيره وبره! ونحن نحيي البيت العتيق بالطواف حوله والصلاة إليه، نجعل الحجر الأسود إلى يسارنا ثم نلف سبع مرات، أو سبعة أشواط. وماذا نقول خلال ذلك؟ نقول: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر. وندعو بما نشاء من حوائج الدنيا والآخرة:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ﴾

(البقرة: ١٩٨)

والبشر فقراء إلى الله، وهو صاحب الخزائن التي لا تنفد.

كلهم سائل وأنت مجيب

تلك نعماك ما لها من نفاد!

وبعض الحمقى من المبشرين يظن للمسلمين علاقات مادية بالكعبة، وبالحجر الأسود خاصة، وهذا ظن ما يبوء إلا بالسخرية والضحك، فإن التوحيد الذي يعمر قلوب المسلمين طراز من اليقين الحر لا نظير له في الدنيا، والهتاف الذي يسود مواكب الحجيج منذ تحركها النبيل هو: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك..» وهو هتاف يزداد هديره كلما علوا ربوة، أو هبطوا واديًا، أو لاقوا جمعًا، وكلما أظلتهم هدأة الليل، أو سكينة السحر، ويشعر الملبي أن الكون كله يتجاوب معه مصداق ما ورد في الحديث: «ما من مُلَبٍّ يلبِّي إلَّا لبَّى ما عن يمينِهِ وشمالِهِ من حَجَرٍ أو شجَرٍ أو مدرٍ حتَّى تنقطعَ الأرضُ من هاهنا وَهاهنا»[١] ولا عجب أن يتجانس الكون المسبح بحمد الله مع إنسان انخلع عن نفسه، وانطلق في سفر صالح يبتغي مرضاة الله.

وكان النبي ﷺ لا يريد سفرًا إلا قال حين ينهض من جلوسه:

«اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ»[٢]

إن الحاج إنسان متبتل إلى الله، متلهف على رضاه، متطلع إلى مثوبته متخوف من عقوبته، يتحرك كل شيء في بدنه بمشاعر الشوق والرغبة والحب، ولا أعرف تجمعًا أهلًا لرحمة الله ومغفرته كهذا التجمع الكريم.

والسعي بين الصفا والمروة يقع عادة بعد الطواف، وشعائر السعي تجديد وتخليد لمشاعر التوكل على الله كما استقرت في قلب «هاجر» أم إسماعيل، وكما استقرت في قلب رجلها إبراهيم الخليل.

إن التوكل شعور نفيس غريب، وهو أغلى من أن يخامر أي قلب، إنه ما يستطيعه إلا امرؤ وثيق العلاقة بالله حساس بالاستناد إليه والاستمداد منه. وعندما ينقطع عون

(١) رواه ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي ، رقم: ٢٣٨٠ .

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث ابن عمر –رضي الله عنه– برقم: ١٣٤٢.

البشر، وتتلاشى الأسباب المرجوة، وتغزو الوحشة أقطار النفس، فهلا يردها إلا هذا الأمل الباقي في جنب الله؟!

عندئذ ينهض التوكل بِرَدّ الوساوس وتسكين الهواجس. إنني بعين الخيال أتبع «هاجر» وهي ترمق وليدها الظامئ، ثم تجري بخطوات والهة هنا وهناك ترقب الغوث وتنتظر النجدة. إن ظنها بالله حسن، وقد قالت لإبراهيم عندما تركها في هذا الوادي المجدب الصامت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت في رسوخ: إذن لا يضيعنا.

وها هي ذي تتعرض للمحنة، وتنتظر تدخل السماء. وتدخلت السماء، وتفجرت زمزم، وغني الوادي بعد وحشة، وصار الرضيع أمة كبيرة العدد عظيمة الغناء، ومن نسله صاحب الرسالة العظمى، ومن شعائر الله هذا التحرك بين الصفا والمروة تقليدًا لأم إسماعيل، وهي ترمق الغيب بأمل لا يخيب.

ما أحوج أصحاب المُثل إلى عاطفة التوكل، إنها وحدها تكثرهم من قلة، وتعزهم من ذلة، وتجعل من تعلقهم بالله حقيقة محترمة، ولعل ذلك بعض ما تعنيه الآية:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

(البقرة: ١٥٨)

قال المؤرخون: إن إبراهيم لما ترك هاجر وابنه يواجهان المصير المجهول في هذه البقعة المنقطعة عرض له الشيطان وهو ينقل قدميه في منى -بعد ما أنفذ أمر الله- يقول له: أيترك أحد أسرته تموت جوعًا وعطشًا على هذا النحو؟ عُد فاستنقذ أهلك! ولكن إبراهيم حذف الشيطان بالحجارة ومضى في طريقه يناجي ربه:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

(إبراهيم: ٣٧)

واستجاب الله للدعاء الخالص، وسقط كيد الشيطان فلم ينل شيئًا من قلب الإنسان المؤمن الواثق، وكانت سنة رمي الجمرات ليعلم من يجهل أن وعد الله حق، وأن وسوسة الشيطان هراء، وما تعمل هذه الوسوسة عملها إلا مع أصحاب القلوب الفارغة:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾

(النحل: ٩٩، ١٠٠)

ومما يلفت النظر أن القرآن الكريم لما أراد أن يذكر رمي الجمرات بمنى لم يستعمل هذا العنوان المألوف، بل عبر عنه بذكر الله في أيام معدودات، قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾

(البقرة: ٢٠٣)

كأن المقصود من الموضوع هو الذكر

الجهير العالي لرب العالمين، وما رمي الجمرات إلا رمز. والحق أن الحج كله هو هذا الهدير الموصول بذكر الله من أمواج بشرية متصلة، لا شغل لها إلا الجؤار بالتلبية والهتاف بالتسبيح.

ومن المؤسف أن رمي الجمرات تحول إلى عمل معنت تُزهق في زحامه أرواح ولا يستطيعه إلا أصحاب الجلادة والمغامرة! لماذا؟ لأن الرأي الفقهي السائد أن الرمي لا يصح إلا بين زوال الشمس وغروبها.

فكانت الجماهير المتدفقة في ذلك الوقت العصيب تواجه المهالك، وقد رفضت شخصيًّا هذا الرأي؛ لأني لم أعرف له إسنادًا من كتاب أو سنة، ورميت في أوقات خفيفة الحر والزحام. ومما يسر الآن أن الحكومة السعودية جعلت للرمي ميدانًا أعلى وآخر تحته، وضبطت طريقي الذهاب والعودة، وفسحت المجال للقول بأن الرمي يصح خلال الأيام المعهودة ليلًا أو نهارًا، فاستنقذت بذلك أرواحًا وأعانت على طاعة؛ إن هناك مسلمين يظنون الحج جملة مشكلات معقدة، وهؤلاء عسروا اليسير واختلقوا بدعًا لا أصل لها حتى ظن البعض أن لكل شوط في الطواف دعاءً خاصًّا، وأن لكل شوط في المسعى دعاءً خاصًّا، وأُلفت كتب لهذه الأدعية ما أنزل الله بها من سلطان.

وهناك أشخاص معلولو الفكر يظنون السعي على الأرض أولى من السعي في الدور الأعلى الذي أقامته الحكومة تخفيفًا لأهوال الزحام، وكذلك في رمي الجمار يظنون أن الرمي على الأرض أهم من الرمي في الدور الأعلى!! وما يدري هؤلاء أن النبي ﷺ طاف حول البيت فوق ناقته يشير إلى الحجر الأسود بعصاه من بعيد.

إن الحج عبادة رقيقة محبوبة أساسها الوقوف بعرفة، والطواف حول البيت وبعض شعائر أخرى يمكن استيعابها بيسر دون قلق أو حرج. والدين كله يقوم على صدق الإخلاص ونُضج الأخلاق وحسن العلاقة بالله وبعباده، والقرآن الكريم يقول في الحج:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

(البقرة: ١٩٧)

وهذه الرحلة بين الأماكن المقدسة تصقل الطبع وتزكي القلب، وتنمي مشاعر الحب لله ولرسوله وجماعة المسلمين، فلا عجب إذا قال رسول الله ﷺ في أثر هذه الفريضة الجليلة: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[٣]. ولقد ثبت أن مكة مركز العمران في هذا العالم، واستطاع الدكتور «حسين كمال الدين» أستاذ الهندسة بجامعة الرياض أن يثبت بحسابات رياضية

(٣) رواه البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم: ١٨٢٠.

عالية أن مكة تتوسط القارات المأهولة، وأن وضعها الذي قرره العلم الحديث تفسير حقيقي لقوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾

(الشورى: ٧)

فحول الكعبة المشرفة دوائر متتابعة الرحابة من الرُّكّع السجود، يتلوها غيرها من المسلمين الذين اتخذوا المسجد الحرام قبلتهم، وعلى امتداد خطوط الطول والعرض تسمع كلمات الأذان وتنحني الأصلاب والجباه ركوعًا وسجودًا لأهل الحمد والمجد، رب المشارق والمغارب، رب العالمين.

في موسم الحج تلتقي مكة بالوفود المقبلة من كل فج عميق، تلتقي بأفراد الإنسانية الموحدة المهتدية المحبة لله وللمسجد الأول أبي المساجد؛ في القارات كلها تتصافح الوجوه وتتعارف النفوس على تلبية النداء الصادر بحج البيت، النداء الذي صدر من قديم، وزاده الإسلام قوة وحدة:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ ﴾

(الحج: ٢٧، ٢٨)

ووفود الله القادمة إلى مكة تصنع مجتمعًا شغله الشاغل ذكر الله، والهتاف باسمه المبارك. في الأحياء التجارية يكون تبادل السلع والأثمان هو الحركة السائدة، في الدواوين الحكومية يكون تنقيل الأوراق من هنا وهناك مظهر الحياة البارز. لكن الحجاج والعمار يقيمون سوقًا للصالحات لها جؤار هائل بالتلبية والتكبير كأن الأرض تحولت بهم إلى أفق يعج بالملائكة المتعبدين.

قال النووي يرسم عمل الحجيج: «ويستحب الإكثار من التلبية. يُستحب ذلك في كل حال، قائمًا وقاعدًا، ماشيًا وراكبًا، مضطجعًا ونازلًا وسائرًا، محدثًا وجُنبًا وحائضًا. وعند تجدد الأحوال وتغايرها زمانًا ومكانًا، كإقبال الليل والنهار، وعند الأسحار، واجتماع الرفاق، وعند القيام والقعود والصعود والهبوط والركوب والنزول، وفي أدبار الصلوات، وفي جميع المساجد». ثم قال النووي: «وإذا رأى شيئًا أعجبه قال: لبيك، إن العيش عيش الآخرة.. اقتداء برسول الله ﷺ». ولبواعث هذا الإعجاب قصة، فقد روى الشافعي عن مجاهد قال: كان النبي ﷺ يُظهر التلبية: لبيك اللهم لبيك.. إلى آخرها حتى إذا كان ذات يوم والناس يدفعون عنه، فكأنه أعجبه ما هو فيه فقال: «لبيك إن العيش عيش الآخرة». قال ابن جريج: «حسبت أن ذلك يوم عرفة». من حق عشرات الألوف من الحجاج أن يزدحموا حول نبيهم، وهو يجأر بذكر الله. إنه صانع هذه السيرة وقائدها. لكن محمدًا لا يزدهيه أن تزدحم حوله الأتباع، إن فؤاده المعلق بالله، المرتقب للقائه، جعله يذكر الآخرة، ويؤمل في غدها القريب. ولقد سُمع وهو على الصفا يقول: «الله أكبر الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما

أولانـا، لا إلـه إلا اللـه وحده لا شـريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويميت، بيده الخير، وهو على كل شـيء قدير، لا إله إلا الله، أنجز وعده، ونصـر عبده، وهزم الأحـزاب وحده، لا إلـه إلا اللـه، ولا نعبد إلا إيـاه مخلصين له الذين، ولو كـره الكافرون. اللَّهُـمَّ إِنَّكَ قُلْتَ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافـر: ٦٠). وَإِنَّـكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ. وَإِنِّي أَسْـأَلُكَ، كَمَا هَدَيْتَنِي لِلْإِسْـلاَمِ، أَنْ لاَ تَنْزِعَـهُ مِنِّي. حَتَّـى تَتَوَفَّانِي، وَأَنَا مُسْلِمٌ»(٤).

سـبحان الله، أمل الرسل الكرام من قبل! إن يوسف الصديق -بعدما أوتي الملك- دعا الله أن يميته على الحق:

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

(يوسف: ١٠١)

كذلـك يدعو محمـد ربه، وهـو في حجة الوداع، بعدما نكـس الأوثان، ومحا الجاهلية وأقام دولة التوحيد! والجميل أنه بعد خمس سنين من غزو الأحزاب للمدينة يذكر النصر الذي منحه القدر، والذي جاء نجدة مشـرقة بعد كفاح معنت رهيب.

إنه الله! أنجز وعده وهزم الأحزاب وحده، ومـا كان غيره يفـل حدهم ويمزق شـملهم ويبطل كيدهم.

إنه الله! أهـل الحمد والثنـاء، وأهل التقوى وأهـل المغفـرة. هل اسـتراح الإيمـان وحملته بعد هـذه المعارك المظفـرة؟ كلا... إن القوى الكافرة سـتظل تبغض الحـق ورجاله، وتقلب لهم الأمور، بيد أن رجالات الإسـلام سـيمضون فـي الطريـق إلى نهايتـه ولو كـره الكافرون. تتبعت كلمات النبي ﷺ في مناسك الحج، ظانًا أني سأطالع أدعية مستفيضة ففوجئت بوجازة الكلمات التي قالها!

لكن المسلمين أحدثوا لكل شوط في الطواف أو السعي وردًا يُتلى، وأحدثوا ليوم عرفة أدعية مسـهبة، والعاطفة وراء هذا الإلحاح مقدورة، والمقبل على الله لا يُسـتغرب منه أن يسـتعين بكل كلمة تترجم عن شـوقه وأمله، وأن يتشبث بكل حرف يظنه مفتاحًا لخزائن الرحمة العليا. إن أي مسلم ينشد لنفسه وأهله الرضا والقرار، فهو يقول مع موسى الكليم:

﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

(القصص: ٢٤)

والدعاء الذي لم يسـأم النبـي تكراره في الطواف والسعي:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

(البقرة: ٢٠١)

والنشـيد الـذي يتـردد بين قمـم الجبال وبطـون الأودية هو: «لا إلـه إلا الله وحده لا شـريك له، له الملـك، وله الحمـد، وهو على كل شـيء قدير» الألـوف المؤلفة تصرخ به، وتتلاقى عليه.

(٤) رواه الإمام مالك في الموطأ، من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنه- برقم: ١٣٧٩.